مقدمة

علم الفن الإسلامي وآفاق نظريته المعرفية

يتسع مفهوم الفن الإسلامي Islamic Art عند بعض الباحثين لكل أشكال الإبداع اللغوية والأدبية والفنية وغيرها، مما لا تمييز معرفياً فيها بين العلم والأدب والفن. ويتوسط بعضهم الآخر في سعة هذا المفهوم على كل ما له علاقة مباشرة بالشعور والإحساس والتذوق الجمالي، عبر الأذن والسماع كالموسيقى والنغم، وعبر العين والإبصار كالعمارة والرسم. ولكن مفهوم الفن الإسلامي يقتصر -عند أغلب مؤرخي هذا الفن ونقاده المعاصرين- على كل ما له علاقة بصرية مباشرة بصناعة الجمال الإنسانية في الإبداع الإسلامي، وبكل ما له علاقة معرفية بمنجزات هذا الإبداع المتحققة في مجالات فنون العمارة، وفنون الكتاب، وما يتصل بهما من الفنون التطبيقية، أو الصنائع الفنية الإسلامية القائمة على التوفيق المبدع بين جمالية هذه الفنون واستعمالاتها الوظيفية في البناء المعماري، وفي صناعة الكتب والمخطوطات، وفي إنتاج الأدوات والأثاث، وغير ذلك من المصنوعات الوظيفية المختلفة.

وقد صار هذا المفهوم العلمجمالي aesthetic للفن الإسلامي هو النواة المعرفية لدراسة العمائر واللوحات، والقطع والتحف والمخطوطات والمصنوعات المادية المنتجة تاريخياً في سياق

الحضارة الإسلامية، والقابلة للوصف والتصنيف والعرض، بوصفها أعمالاً فنية إسلامية الإبداع والصناعة والإنتاج، فضلاً عن الانتماء والهوية، بعد أن كانت تلك العمائر والمخطوطات والمصنوعات الحضارية الإسلامية مندرجةً مفهومياً ضمن علم الآثار Archaeology الذي تعامل معها على أنها مجرد بقايا remains أثرية طريفة ونادرة جديرة بالفضول الثقافي والحفر المعرفي في أصولها التاريخية وطبيعتها الحضارية، بعد أن كانت هذه الآثار Antiquates الإسلامية مندرجة معرفياً تحت علم المتاحف Museology.[1]

وربما أدت حاجة هذين العلمين التاريخيين إلى المعلومات العلمية الدقيقة المتعلقة بهذه الآثار الفنية الإسلامية إلى دراستها من النواحي المادية والصناعية والتاريخية والحضارية، وغير ذلك من النواحي المعرفية، التي كانت موضوعات subjects مختلفة، مهدت لنشوء الفن الإسلامي موضوعاً من موضوعات علم الآثار، وصيرورته جزءاً من الدراسات التاريخية للفن الإنساني، فتحققَّت لمفهوم الفن الإسلامي بذلك انتقالة معرفية فاصلة، من كونه مفهوماً مادياً عيانياً يعبّر عن الآثار والنتاجات والمصنوعات والتحف الجميلة المتصلة بالإبداع الفني والحضاري الإسلامي، إلى صيرورته مفهوماً نظرياً وأثراً معرفياً وموضوعاً فلسفياً قوامه

(1) تَشكَّل هذا العلم معرفياً منذ العام 1139هـ/1727م، ليعنى بالوظائف الجمالية والعلمية والتجارية والتسويقية للمجموعات الفنية، بوصفها مجالاً من مجالات التاريخ الثقافي والحضاري الإنساني.

رؤية ومبدأ، ونظرية ومنهج، يصلح لأن يكون أساساً لعلمٍ من العلوم الفلسفية والنقدية المتعلقة بالجمال الفني الإسلامي، يمكن أن نطلق عليه: "علم الفن الإسلامي" أو "الإستاطيقيا الإسلامية"، لكون الإستاطيقيا هي العلم الفلسفي الأكثر عناية بنقد الأعمال الفنية المادية والبصرية وتقويمها.

ويتمثّل ما يحسب لهذا الاتجاه من فضل علمي وقيمة معرفية، في أن أدبيات هذا الاتجاه الوظيفي المباشر قد فتحت الطريق لنقل مفهوم الفن الإسلامي من كونه أثراً مادياً عيانياً material، إلى صيرورته موضوعاً theme قابلاً للنظر الفلسفي، الذي يغور في الرؤى والمبادىء والنظريات والتحولات الفكرية والمنهجيات النقدية المؤسسة لما يمكن أن نطلق عليه علم الجمال الإسلامي بعامة، وعلم الفن الإسلامي بخاصة، بما يفتح الباب على مصراعيه لنشوء نظريات متواصلة ومشتركة بين مجالات البحث العلمي المتعددة بتعدد العلوم الإنسانية والاجتماعية والثقافية، وإلى حدٍ ما العلوم الصرفة والتطبيقية، في الفن الإسلامي، حتى إنّه يمكن القول إن هناك أكثر من نظرية تفسر الظاهرة الفنية الإسلامية ووجوهها المختلفة، وتعالقاتها الشديدة الارتباط بالإنسان، أو بالمجتمع أو بالتاريخ أو بالثقافة أو بالجمهور المتلقي، أو غير ذلك من الأهداف المعرفية، التي يمكن لها إتاحة الفرصة لكل مبحث من مباحثها هذه لابتكار الأدوات التي تناسب أهداف دراسته، فقد تختلف الأدوات المطلوبة لبحث علاقة الفن الإسلامي بالثقافة والأعراف

والتقاليد الإسلامية التي تسود مجتمع منتجيه المختلفين (ثقافة الفن الإسلامي) مثلاً، عن تلك الأدوات المطلوبة لدراسة علاقة هذا الفن بوصفه نشاطاً اجتماعياً، بالنظام الاجتماعي العام الذي يحكم ممارسة هذا الفن بين الجمال والاستعمال (علم اجتماع الفن الإسلامي). وتختلف هاتان الدراستان عن دراسة علاقة هذا الفن بالأبنية والتأثيرات النفسية للمبدع والمتلقي على حد سواء (علم نفس الفن الإسلامي)، وهكذا يمكن لكل هذه المباحث، وربما لغيرها، أن تنتظم معرفياً بعلاقات عضوية حميمة مع بعضها بعضاً؛ من التأثير والتأثر، في سياق ما يمكن أن نطلق عليه نظرية الفن الإسلامي، التي تعمل في الأساس على بناء الرؤى الفكرية والتحولات المعرفية والتقنيات المنهجية والصياغات الأسلوبية والموضوعات العملية والنظرية المتعلقة على وجه التخصيص بهذه الآثار الفنية الإسلامية، وبظاهرتها الاجتماعية والثقافية والحضارية، ومعرفتها الجمالية المركَّبة من جملة معارف الوحي والفلسفة والصناعة الإنسانية والاجتماعية للعمل الفني الإسلامي.

لقد كانت الدراسات الآثارية والتاريخية للأعمال المعمارية والفنية الإسلامية وما تزال، هي دراسات الفن الإسلامي الأم والأغلب، التي تحدد قيمته المعرفية والثقافية على أساس العمر الزمني لهذه الأعمال العائدة إلى حقبة سياسية ماضية في الغالب، دون أي اكتراث لقيمتها الجمالية والفنية، الأمر الذي كان قد ولّد لدى بعض دارسي هذا الفن اعتقاداً أو قناعةً ما بأن الفن الإسلامي

قد وصل إلينا "دون فلسفته أو أخبار فنانيه، ودون شرح لتقنياته وأساليبه؛"[1] أي إن هذه الآثار المعمارية والأعمال الفنية وصلت إلينا دون نظريتها الفلسفية والجمالية والفنية، بل وربما لم يكن لها مثل هذه النظرية، وبخاصّة أن بعضاً آخر من دارسي هذا الفن حاول تبرير ذلك بالذهاب إلى أن "الحضارة العربية الإسلامية لم تشعر بحاجة إلى إفراز خطاب نظري منهجي حول الجمال يمكن أن نفيد منه في بحث الأسس الجمالية للفن الإسلامي."[2]

وتبرز خطورة أطروحة الاعتقاد بانعدام وجود أو غياب النظرية الفنية في التراث الفكري العربي والإسلامي، في أنها تفتح الباب على مصراعيه لكل ما يمكن أن ينشأ من الإشكاليات المعرفية في مفهوم الفن الإسلامي وأصوله وهويته الثقافية وطبيعته الحضارية، فضلاً عن فلسفته الفكرية ونظريته الجمالية، التي حاول العديد من مؤرخي هذا الفن ونقاده المستشرقين وغير المستشرقين إنشاء بنيتها المعرفية في ضوء الفكر الجمالي الغربي. فقد تعددت أوجه نظرية الفن الإسلامي وآفاقها المعرفية، بما جعلها أبرز إشكاليات

---

(1) حسني، إيناس. **أثر الفن الإسلامي على التصوير في عصر النهضة**، بيروت: دار الجيل للطباعة والنشر، ط1، 2005م، ص12.
انظر أيضاً:
– داغر، شربل. **الفن والشرق: الفن الإسلامي**، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1، 2004م، ج1، ص72.

(2) اللواتي، علي. **نحو نظرية للجمالية الإسلامية**، ضمن: **الفن العربي الإسلامي**، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ط1، 1982م، ص151.

البحث العلمي المتعلق بهذا الفن، وأكثر موضوعاته جدلاً بين العدم والوجود، أو بين الاغتراب والتأصيل.

وتكشف القراءة النقدية المعمّقة، لذلك الخطاب المعرفي الخاص بالبحث عن نظرية الفن الإسلامي أو الخطاب المعرفي الخاص بالبحث في هذه النظرية، عن تباين الأفكار والآراء والرؤى والتفسيرات المتعلقة بها، وعن اختلافها بين العموم والخصوص، أو بين الإجمال والتفصيل، أو بين كليات الفن الإسلامي الفكرية والفلسفية، والجمالية، والدلالية-الرمزية من جهة، وجزئياته الفنية والعلمية والنقدية المتعلقة بأجناسه وأساليبه وتقنياته وأعماله الإبداعية من جهة أخرى، بما يؤدي بالتالي إلى إمكان التعامل المعرفي والمنهجي مع نظرية الفن الإسلامي، بوصفها عنواناً واحداً جامعاً لمساراتٍ ثلاثة متعالقة ومترابطة ومتشابكة، هي:

أولاً: محاولة تأطير هذه النظرية بالمفهوم العلمي القائم على معنى النظرية في حده الأدنى، المعبِّر عن وجهة نظر أو رؤية منظمة منهجياً، بمجموعة من المفاهيم والعلاقات والتحولات، التي تعمل على تفسير ظاهرة معينة، بهدف تكوين معرفة موضوعاتية thematic بطبيعتها البنيوية والصفاتية والوظيفية. وتمثل النظرية بعامة أساساً من أسس العلم الضرورية ومبادئه الحدية وإجراءاته المنطقية، لكنها بخاصة غالباً ما تمثل العلم النظري المجرد المتعلق بالأدب والفن من أركان المعرفة الإنسانية وجوانبها الإبداعية، فكانت (نظرية

الأدب) مثلاً أقرب ما تكون إلى (علم الأدب) من حيث المفهوم والدلالة والطبيعة المعرفية، والأمر نفسه يكاد ينطبق تمثيلاً على (علم الفن) بما يسمى (النظرية الفنية) التي هي المادة المعرفية لعلم الجمال.

ومن هنا؛ فإن نظرية الفن الإسلامي قد تعني -على العموم- تلك الأفكار والآراء والرؤى والتفسيرات المتعلقة بالظاهرة الفنية الإسلامية، بكل مفاهيمها وعلاقاتها وتحولاتها، فضلاً عن طبيعتها البنيوية والصفاتية والوظيفية، التي أبدعها صانعو هذه الظاهرة، أو نظَّر لها علماء الجمال وفلاسفة الفن المسلمون القدامى، أو قدَّمها دارسوها المحدثون تحليلاً وتأصيلاً.

ثانياً: البحث العلمي العام عن محتوى هذه النظرية، ومقوماتها وخصائصها في التراث الفكري والمعرفي والحضاري الإسلامي، لتأصيل العمق المعرفي لنظرية الفن الإسلامي، وبخاصة في ما يتعلق بالمفهوم العام لهذا الفن، وطبيعة نسقه المعرفي الكلي، وخصائصه الشمولية القائمة على الوحدة والتنوع بوصفهما الجوهر المعرفي لأية نظرية فنية.

ثالثاً: البحث النقدي المتفرع معرفياً ومنهجياً عن ذلك المسار البحثي العام، وذلك من خلال دراسة النظرية المعرفية لفن من الفنون الإسلامية، كفن العمارة الإسلامية، أو فن الخط العربي على سبيل المثال لا الحصر، أو مبحث من مباحث الفن الإسلامي

التاريخية والعلمية، كأصل الفن الإسلامي ومصادره، أو علم اجتماع الفن الإسلامي على سبيل المثال لا الحصر كذلك، أو موضوع من موضوعاته الفكرية والفلسفية والجمالية والنقدية، كموقف الإسلام من قضية التصوير أو من الطبيعة والمادة وعلاقتهما بالفن الإسلامي أو النور والماء والحركة والشكل، وغير ذلك من الموضوعات التي يمكن أن يعاينها النقد العلمجمالي في الفن الإسلامي.

ويأتي ما قدّمناه في هذا الكتاب من الدرس والتحليل والنقد والتأصيل لنظرية الفن الإسلامي في السياق المعرفي لهذه المسارات الثلاثة؛ إذ تدور رحى دراسات هذا الكتاب على الرؤية الفلسفية والمنهج العلمجمالي النقدي، اللذين يفتحان أمام البحث العلمي المتعلق بالفن الإسلامي أبواباً ومجالاتٍ وموضوعاتٍ هي أقرب ما تكون إلى علوم اللغة والدلالة والرمز والثقافة والقيم والاجتماع والتواصل، فضلاً عن علم عناصر الفن الإسلامي وبنيته المعرفية.

ففي هذا الكتاب دراساتٌ تدور في مجملها على نظرية الفن الإسلامي العامة والخاصة، أو إن هذه النظرية تمثل المحور المقصود لعناء هذه الدراسات وتطلعاتها الفلسفية والنقدية، في سياق البحث العلمي الجديد لدراسة الفن الإسلامي؛ إذ يمكن تمييز مراحل ثلاث لمسيرة دراسة هذا الفن منذ اكتشافه العلمي الحديث في غضون القرن التاسع عشر الميلادي:

فقد قامت المرحلة الأولى، التي يمكن أن نسميها مرحلة الاكتشاف الآثاري المحض تقريباً لوجود هذا الفن وطبيعته الحضارية والتاريخية، على أكتاف المستشرقين، بكل أصولهم وثقافاتهم ومناهجم وتطلعاتهم من البحث عن الفن الإسلامي ودراسته.

وقامت المرحلة الثانية -التي يمكن أن نسميها مرحلة المثاقفة الاستشراقية - الإسلامية في الاكتشاف العلمي لهذا الفن- على أكتاف بعض المستشرقين، من الذين ارتادوا مواطن الفن الإسلامي، واستوطنوا بلدانه عملاً في خدمة هذا الفن، وتعليماً لبعض أهله من الدارسين والباحثين العرب والمسلمين، الذين تلمذوا في بلدانهم، كمصر مثلاً، لهؤلاء المستشرقين أو أوفدوا في بعثات علمية لدراسة الفن الإسلامي في المدارس والمتاحف والمؤسسات والأكاديميات الغربية. وكانت هذه المرحلة ولوداً بآراء وأفكار وتحليلات استشراقية في الغالب، كثيراً ما تنال من القيمة المعرفية لنظرية الفن الإسلامي على الرغم من التباين الحاد في ما بينها في عموم موضوعات الفن الإسلامي.

أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة العمل العلمي المتجه ولوجاً فلسفياً ونقدياً في ما وراء الفن الإسلامي من النظرية الجمالية المقيمة لبنية هذا الفن الحضارية والثقافية، التي يمكن أن تؤسس لصيرورته المعرفية؛ الإسلامية الخاصة والإنسانية العامة. وقد

لا تقوم هذه المرحلة على اكتشاف المؤرخين من دارسي الفن الإسلامي، والباحثين فيه من المستشرقين وغيرهم، بقدر ما يمكن أن تقوم على أكتاف أولئك الدارسين من فلاسفة الفن ونقاده، الضالعين في النظر الفلسفي لعلم الجمال الإسلامي. ونحسب أن تكون دراسات هذا الكتاب المتواضعة واردة في السياق المعرفي لهذه المرحلة الثالثة، فقد حاولنا ترتيبها على نحو متراكب بالحديث عن المفهوم القلق لبعض ألفاظ الفن الإسلامي، لنشوئها في البيئة المعرفية لما يمكن أن نسميه علم الجمال الاستشراقي، ومحاولة بناء مصطلحات هذا الفن وتأصيلها بما يحقّق كونها البؤرة الدلالية لنظرية الفن الإسلامي، وطبيعتها المعرفية المتصلة بتفسير الظاهرة الجمالية والفنية في الفضاء الحضاري الإسلامي، على أساس من نظرية الوحدة والتنوع النقدية المتعلقة ببنية هذا الفن المعرفية، وخصائصه الجمالية التي يمكن جمعها وتنسيقها معرفياً فيما يمكن أن نسميه الوحدة الخصائصية المعبرة في نظر المفكر الإسلامي إسماعيل الفاروقي (ت1406هـ/ 1986م) عن حقيقة أن التوحيد هو مبدأ الجمال في نظرية الفن الإسلامي.

دكتور إدهام محمد حنش